من تراب الطريق (٥٥٠)

الذاكرة في حيواة الناس (*) (١)

الذاكرة هى مخزون حياة كل منا، ماضيه وما شاهده ويشاهده فى حاضره، وما ألمّ به أو فاته، وما أصاب فيه أو أخطأ، وما يعقد عليه النيّة أو يزمع الإقدام عليه فى المستقبل القريب أو البعيد .. وهذه الخزانة أعنى ذاكرتنا، إذ تحفظ فيما يبدو شعورنا بما نسميه الألم والوجع البدنى، وما نسمّيه الحزن والضيق والهم والغيظ والكمد والحقد والشقاء والتعاسة وغيرها من المنغصات والأزمات النفسية، فإنها لا تفرق أى الذاكرة بين هذه المسمّيات بمصطلحات خاصة إلاّ فى مراحل متقدمة من نمو التنبه للغة والوعى .. فلا ترى هذه التفرقة فيما تمثلنا به لدى الرضيع فى صراخه لضيق أو بلل أو جوع، ولا تتعرف أمه أو حاضنته أو مرضعته على سبب صراخه إلاّ بفضل ما نما لديها هى من اللغة والوعى خلال سنى العمر .

أما الرضيع ذاته فلا يميز اختلاف الأسباب، ويتعامل فى الإعراب عنها أوعن ضيقه منها بتعبير واحد لا يميز بين كل منها والآخر، وإنما يبدو وكأنه يشملها كلها جملة . وهذه المرحلة الأولية يبدو أنها على نحوٍ ما حيل لكل أنشطة الذاكرة .. يتفرع منها وعليها ويتخصص مع تقدم المراحل لتنبيه الآدمى لتلك الفروع والمسمّيات التى لا تنفصل انفصالاً تامًا عن أصلها مع امتداد العمر . وقد يتاح من هذا الأصل صور من الارتداد مع الامتزاج

(*) المال ٢٦/ ١٢/ ٢٠١١

والاختلاط يلاحظها معظمنا فى الأحلام ، وتلاحظ مع بعضنا أحيانا فى أحوال الغضب والكبت أو المرض البدنى أو النفسى .

وذاكرة الأصم الأبكم لا تجد وسيلتها فى تمثل وتخيل وحفظ هذه الفروق وذكر مسمّياتها فى لغة من لغات الآدميين المألوفة لعجزه عن الاستماع وعن الكلام الذى يتخاطب به الكافة ، وإنما هو يحاول اختزان ما لديه والإعراب عن هذه الفروق بالحركات والإشارات . ولعلّه بذلك التصور ينجو من كثير من خصائص الأصوات وسعتها فى الاصطلاح والتكوين والتفريغ والتسجيل للمشاعر والأفكار والآمال والأحزان والمخاوف والظنون ، وينجو من زرايات ما معنا من يسر التعبير عن ذلك بأصوات صغيرة جدا أو كبيرة جدا فى الماديات : يعرفها من يعرف اللغة معرفة مباشرة أو عن طريق الترجمة فيعرف ما يتناقله كثرة السامعين الناطقين من باطل وخيال كثيب ومفزع .

فالأصم الأبكم حتى وإن عايش السامعين الناطقين وخالط وتعلم وعمل وتزوج وأنجب ، يستبقى قدراً من الهدوء فى عزلةٍ نسبية تجمع بين هذا الهدوء عادة وبين الغيظ والضيق أحيانا ، ويجد نفسه مهما اجتهد فى أن يكون عاديا مثل محيطه يجد نفسه مغايراً على نحو عام ، ويختلف حكمه عليهم من حكمهم عليه . وقلما يعثر لنفسه على مكان فى سراء أو ضراء مما يجرى حوله فى محيطه ، أو يشارك الناس فى أحقادهم وعداواتهم وصداماتهم ودعاواهم وأوهامهم وأحلامهم وضوضائهم ولغوهم وغرورهم الذى ليس له آخر .. وإنما هو لم يتعرض أو انقطع تعرضه لضجة وصخب ولفظ البشر وعبوديتهم للغات والأصوات التى تملأ رءوسهم وتخلى قلوبهم من الود والفطنة والسلام !

ولغة الإشارات التى يتعلمها الأصم والأبكم كسب حقيقى للبشرية .. فهى تسمح له بنمو وعيه وعقله وعواطفه ، كما تسمح له بالاكتتاب بنصيب فى تنمية هذا فى محيطه وفى المحيط العام لمعاصريه بمعونة من يترجم عنه من غير الصم والبكم الذين يعرفون لغته وما يتلقون أو ينقلون به فى التوصيل عن الأصم الأبكم بما يخفف عنه عبئه ويرفع من قدراته ويعينه على مخالطة العاديين والتعامل معهم .

فذاكرتنا نحن العاديين مزدحمة دائما بما تلقته وبما اصطنعناه من صيغ لا حدود يقينية لمعاينتها ترضى قابليتها للاتساع والتطبيق تطبيقا محددا واضح المعالم .. فنحن مثلا نحب الإخلاص حباً خياليا نظريا أو نشيد به فيما نقوله ونكتبه ، ونتبرأ من عدم الإخلاص حين نشاهده أو نسمع به ، ونتباكى على غياب الإخلاص فى محيطنا وزماننا دون أن نعنى أو نلتفت إلى وجود الإخلاص لدينا نحن وفى سلوكنا نحن .. بل دون أن نحاسب أنفسنا على غيابه فى حياتنا الخاصة أو العامة !

من تراب الطريق (٥٥١)

الذاكرة في حيواة الناس (*) (٢)

درج الآدميون على أن يحاسبوا غيرهم دون أن يحاسبوا أنفسهم على ما يحاسبون غيرهم عليه .. سواء فى الحياة الخاصة أو الحياة العامة .. ويبدو أننا نأبى أن نعترف أن غالبيتنا الغالبة غير قادرة على التضحية بالكثير من مطامعنا وما نعتبره مصالحنا الحيوية العاجلة والآجلة ، أو عدم الالتفات إلى الاحتمالات والمخاطر القريبة والبعيدة التى نخشاها .. لأننا من بداية حياة كل منا نعتمد اعتماداً فعالاً على غيرنا . ونحن ندخل الحياة من باب الصغر والضعف والاحتياج ، وحين نكبر ونشعر أن لنا إرادة فإننا نشعر بذلك من خلال غابة كثيفة من الذكريات والعلاقات المكدسة فى ذاكرة كل منا.. تراكمت من الطفولة والصبا ، وتعوق دون أن نشعر بإعاقتها طريقنا إلى اتباع شوقنا إلى الاستقلال، وتجعل طريقنا إلى ذلك ملتوياً متردداً مليئاً بالتوقف والمصالحة وأنصاف الحلول ، أو تجعلنا نألفه ونعتاده على هذا النحو من البعد عن الإخلاص .. وعلى قدر ما مع كل منا من كمية مخزونة من ذلك الماضى المتهيب المتعثر !!

على أن عموم وانتشار ذلك الحال فينا ، لا يمنع أيًّا منَّا من أن يقوم بين وقت وآخر بعملٍ مخلص أو بمسلك نزيه يجد له فى نفسه وقعاً خاصاً يذكره ويستحسنه حتى حين يلوم نفسه على إتيانه وتقديمه لمن لم يستحقه فى نظره ..

(*) المال ٢٧/ ١٢/ ٢٠١١

وذلك لأننا نلغى أشواقنا الأخلاقية إلغاءً تاماً من ذاكرتنا حال اعتيادنا على سلوك مطرد لا تقره الأخلاق التى نعرفها ولا نتبعها فى أغلب الأحيان !!

ونحن نجهل هل لذاكرتنا مكان معين ، كما نجهل الكيفية التى تؤدى بها عملها وتؤدى إلى نموها .. كما نجهل هل هى ذاكرة واحدة أو ذاكرات متعددة . دائمة أو وقتية .وهل هى مجرد وسيلة لتمكين البشر من العيش فى محيطهم بأنسب ما يلائم ظروفهم وزمانهم ، أم أنها لبنات تتجمع عبر الأجيال وفق نظام لم نعرفه بعد للوصول بالآدميين إلى درجات من التطور يصعب على كل جيل من أحيائهم تصور آخرها .

وعند المشتغلين بالفيزياء الحيوية للآدمى تتركز تسجيلات الذاكرة فى المخ وفى الجهاز العصبى بخلاياه وخيوطه والوصلات التى تربط بين الخلايا العصبية وما يعترى هذه الوصلات من تغير صور وأشكال ومعانى التعامل مع المحيط الذى يعيش فيه الحىّ ، وذلك على وفق نوع من الانتخاب الطبيعى يؤدى إلى تفضيل طريق على آخر فى التنقل للاستجابات ذات الفائدة .

وارتباط الذاكرة بالتعلم ارتباط أساسى .. لأنه يوافى الآدميين بالمعلومات والخبرات التى تستقر فى الذاكرة وفقًا لمكونات وتفاعلات الاستعدادات التى تكون محلاً للظهور وتنمية العلم والخبرة بطرقها النظامية وغير النظامية حيث يشاهد واضحًا فى عمل الانتخاب الطبيعى فى توزيع الاستعدادات وإظهارها خلال التعلم بنوعيه على صورة مهارات قابلة للنمو وادخار نموذج لها فى المخ يضمن حصول التصرف المطلوب الواجب فى الوقت المناسب .

وإمكانات الذاكرة إمكانات خاصة بكل فرع من الأحياء تبنى عليها دخولها على الذاكرة المعروفة التى تسجل نمو الحىّ وأحداث نموّه تسجيلا

وقتيا يبقى فى المخ فترة تطول أو تقصر ، أو يزول تسجيلها سريعا أو تبقى مع الحىّ إلى آخر حياته .. والاسترجاع يتم من قنوات المخ لا من جزئياته ، لأن التسجيل موجود فى تلك القنوات .. إذ لكل نوع من الأحياء نظام للذاكرة وفى المخ يناسب طريقة حياة كل نوع من هذه الأنواع فى الحياة .

والآدميون فى عصرنا وفى كل عصر سابق يتعاملون وفقا لنظمهم وعقولهم واستعداداتهم وأجسادهم بالمسمّيات المعتادة فى الجماعة التى ينتمى إليها كل منهم على نحو قريب مما تفعله جماعات الأحياء الأخرى .

من تراب الطريق (٥٥٢)

الذاكرة في حياة الناس (*) (٣)

الإنسان حين يستخدم مكنون ذاكرته لمواجهة مطالب حياته ، لا يناقش ما يستحضره منها فيما عدا أداء الحرفة أو إجراء البحث العلمى لا يناقش ما يستحضره منها فى ظروف الحياة العادية الخالية من المرض المعتاد أو الاختلال المعتاد . فنحن فى غير هذين البلاءين وفى غير خطاب الحرفة أو البحث العلمى نعيش ونمارس الحياة وما اعتدناه فيها دون أى التفات حقيقى يحملنا على مراجعة أسلوب حياتنا أو يحدونا إلى تعديله أو تغييره .. ونمضى على ذلك بحكم الاعتياد إلى أن نعرف كيف نحس وكيف نعى ما نحسه وكيف نسجله وأين يُسَجل داخلنا ، وكيف نستعيده وكيف يؤثر فى سلوكنا وحياتنا مع أنفسنا ومع القريبين منا والبعيدين عنا !

ويبدو أحيانا للمتأمل ، أن هذا الإغفال أو قلة أو عدم الالتفات مقصود مؤقت فى الخلقة ، ويبقى مؤقتا إلى أن ينمو فى جماعات الآدميين المستقبلة أجيال جديدة زودت نفسها بشىء أكثر قوة وقيمة وفاعلية .. شىء لا تعوقه المصدقات والبسائط والمسلمات التى استقرت ورانت والتى تلازم الكثرة إلى الآن ! وشاهد ذلك ما يلحظه المتأمل من تطور مستمر فى قدرات الآدميين العقلية أو انفتاحها المستمر على مناطق من الفهم العميق لنواحٍ من تركيبات الطبيعة الحية وغير الحية لم تكن تخطر ببال الآدميين من قبل . والمأمول ألا

(*) المال ٢٨/ ١٢/ ٢٠١١

تطول هذه الفترة علينا مثلما طالت من قبل فترات الغفلة وعدم الالتفات ، وأن ينجح البشر نهائيا فى عبور هذه الفترات وأمثالها والتخلص منها ومن ركودها وركود ما يصاحبها من المخاطر والكوارث واحتمالات الفناء والانقراض !

ومن أشد ما تحتاج إليه جماعات البشر الآن ضبط النفس والتنمية المستمرة للقدرة على ضبطها .. فما صار فى يد الآدميين الآن من الإمكانات والطاقات والقوى هائلة الفاعلية ، يحتاج باستمرار إلى المزيد من الانتباه والضبط وسيطرة الآدمى الكاملة على عواطفه وانفعالاته . وهذا يتطلب دوام الاحتكام إلى العقل وحده فى الأغلب الأعم من الأمور ، والنزول على حكمه بغير تردد ، واعتياد عامة الناس وخاصتهم على ذلك . وهذا وإن كان مطلبا غير هين وغير قريب الحصول لما هو معروف من عمق اختلاف الأمزجة بين الأجناس والجماعات البشرية لاختلاف الأجواء والسلالات ، فإن تقدم العلوم الوضعية إذا تهيأت له الفرصة باستمرار ، قد يقارب بين الأمزجة كما قارب بين الأجناس فى التعلم والصناعة والتجارة والفنون ووسائل النقل والاتصال وطرق العلاج وأنماط التخطيط والرياضة اليومية ، وكما قارب بينها فى التنبيه إلى قيمة الإنسان كإنسان وضرورة احترام حقوقه وصيانتها بغض النظر عن اختلاف الجنس واللون واللغة والدين .. وهذا التقارب وإن كان لا يزال فى بدايته فإنه بلا شك لم يتحول إلى ردة .. وهو ينجح هنا ويتعثر هناك ولكن دون أن يكف عن الحركة ولا عن الرغبة فى السير إلى الأمام .. وهى رغبة قد لا تحسن اختيار الاتجاه أو الوسيلة ، وقد يكلفها ذلك مغارم ثقيلة بين وقت وآخر ، ولكنها لا تزال تحمل اتجاهاً وإصراراً على

التقدم بهداية العقل الحر على أمل أن تكمل هدايتها نهائيًا ويتخلص الآدميون كلهم من قيود الوهم والخوف والخرافة .. وبُعْد هذا الأمل ربما لا يكون أبعد كثيراً من القفزات الهائلة التى قفزتها العلوم الوضعية فى التكنولوجيا الحديثة التى لم يكن أحد يتصور حدوثها من أربعين أو خمسين عاماً .. وهذا الأمل ممكن التحقق إذا لم تتنكب البشرية طريقها وتنكب بحرب نووية عالمية يطلقها هوس الغرور بالقوة أو يأس العناد والانتصار الضرير للذات .

أمام البشرية ، إذا أرادت وأصرت ، آمال واسعة جداً كجنس ناجح يمكنه أن يحقق المزيد ومزيد المزيد من النجاح ، وأمامها أيضاً مخاطر مخيفة مزعجة إذا حادت وتردت فى هاوية الحروب .. وملاذها إن أرادت أن تتجاوز هذا كله وأن تنفض عنها المخاوف والتوجسات وأوهام السيطرة ، وأن تُبقى شعلة الأمل مشتعلة ، وأن تحقق أشواقها إلى السلام الحى الذى فيه الخير كل الخير للبشرية كلها .